الشعر والتلقي

سامر أبو هواش

كنا، مجموعة من الشعراء المشاركين في مهرجان شعري أوروبي، نتناول طعام الغذاء في مطعم قريب من المكان الذي تجري فيه فعاليات المهرجان، فإذا بشاعرة خمسينية كندية تدخل إلى هذا المطعم حاملة في يدها رزمة من الأوراق، وتتنقل من طاولة إلى أخرى، لكي تقرأ على الحاضرين، وبعضهم رواد اعتياديون للمكان وليسوا من المشاركين أو الشعراء، أشعارها.
شعرت للوهلة الأولى بالنفور من مثل هذا السلوك الإعلاني وقلت في سرّي إنها لا بدّ من أن تكون شاعرة متواضعة المكانة والإمكانيات الشعرية، بحيث تستجدي مستمعين لقصائدها على هذا النحو المثير للشفقة، إذ لا يعقل أن يفعل شاعر يحترم نفسه ذلك، عارضاً بضاعته على الآخرين، متوسلاً إعجابهم ورضاهم.
جاءت الشاعرة أخيراً إلى طاولتي، وبادرتني بالقول مبتسمة "لقد فاتني موعد قراءتي الشعرية التي كانت مقررة قبل ساعة، فقلت لنفسي لما لا أذهب بنفسي إلى الجمهور وأسمعه قصائدي".
فوافقت على مضض، وراحت تقرأ قصيدتها لأتدرج في إحساسي تجاه ما أسمعه من الازدراء المطلق إلى القبول إلى القول لا بأس، إلى الإعجاب الحقيقي. وجدت أن شعرها جميل حقاً، لا بل من أفضل التجارب التي سمعتها خلال هذا المهرجان. فتبدلت نظرتي إلى هذه الشاعرة وحكمي المسبق عليها، وتحول ازدرائي إلى احترام وتقدير حقيقيين لشجاعتها وكرمها وتواضعها للقيام بذلك، وإن لم تكن قد تبددت حيرتي تجاه طريقة عرضها لشعرها وأسبابه.
اكتشفت فيما بعد أن هذه شاعرة مرموقة في بلادها، ولها باع طويل في الساحة الأدبية هناك، كما قرأت ما توافر من أشعارها، وأجريت حواراً معها، لأكتشف أن المرأة فعلاً شاعرة مهمة وحقيقية، ناهيك عن امتلاكها معرفة شعرية واسعة وخاصة في آن.

جعلني ذلك أفكر في معنى أن نلقي قصائدنا على الآخرين ومدى أهميته، وهل يقلل وجود جمهور للشعر، أياً يكن حجم هذا الجمهور ونوعه، من أهمية الشعر نفسه؟ وهل يدخل هذا العنصر حين نقبله أو نرفضه في سياق العملية الشعرية ومؤثراتها المتعددة؟

لا أملك في هذا المجال، بما أنني لست ناقداً أو منظراً، سوى رؤية الأمر انطلاقاً من التجربة الشخصية.

فقبل بضعة أعوام شاركت في أمسية شعرية شبه مرتجلة في بيروت قرأت فيها عدداً قليلاً من القصائد، قصيدتين في الواقع، وقد فوجئت فعلاً بحجم تفاعل الجمهور، الشبابي، مع القصائد ومعي، علماً بأنني أدرك جيداً أنني، بارتباكي الذي ترون صورة عنه الآن، لست من أفضل من يلقون الشعر. أفرحني ذلك التفاعل الكبير وجعلني أضطرب في الوقت نفسه. فالقصيدتان اللتان حازتا على مثل هذا التفاعل من الحضور هما بمعنى ما قصيدتان عامتان أو تدوران في فلك أحاسيس عامة على الأقل. و لم أكن أدرك ذلك جيداً قبل تلك الأمسية. فأنا أعتبر نفسي ابناً وفياً للتجارب الفردية الخاصة في الشعر العربي، ولتقاليد أرساها شعراء قصيدة النثر تحديداً، تنظر إلى فكرة الجمهور نفسها بحذر وريبة وفي التقدير الأقل بقلق أكيد. الجهد الذي بذل للتفكير في مسألة الجمهور، سواء الجمهور المستمع أو القارئ، يكاد لا يذكر، ويكاد يكون هناك فصلاً واضحاً بين ناديين من الشعراء، أولئك الشعبيون الذين لهم قاعدة واسعة من القراء، وأولئك النخبويون الجادون الذين لا يأبهون لمسألة الجمهور برمتها، ويعتبرون أن تغييب هذا الجمهور أساسي في أصالة وعمق التجربة الشعرية التي يخوضونها، وأن التخلي عن الجمهور يمنحهم حرية أكبر بكثير على صعيد اللغة والتجريب والذهاب في مغامرات داخلية واسعة.

ما الذي تفعله في هذه الحال إذا جاء طالب جامعي وقال لك بأبسط التعبيرات أنه أحب شعرك؟ تشكره بتهذيب طبعاً، لكن هل تتبنى مثل هذا الإعجاب، خصوصاً أن مصدره قصائد معينة لنسمها اختصاراً بأنها ذات طابع عام؟ تكررت هذه التجربة، تجربة الإلقاء أمام جمهور، عدة مرات، وكانت النتيجة هي نفسها تقريباً، وبدأت أرى في الوقت نفسه أن الأمر يحدث مع شعراء شباب آخرين أيضاً.

ثم حدث أن شاركت في مهرجانات شعرية عربية، وخلال أمسيات الشعراء من أجيال مختلفة لاحظت انكفاء الناس عن الحضور، وأن عدد الشعراء على المنصة وأصدقاءهم في الصالة كان يتجاوز في بعض الأحيان عدد الجمهور.

قد أكون مخطئاً في ذلك لكن الاستنتاج الذي تولّد لدي مع الوقت هو أن الشعر، لكي يصل حقاً ويولد تفاعلاً إيجابياً، يحتاج إلى بيئة محلية. ولا أعني بالمحلية النطاق الوطني الجغرافي لبلد ما، ولا الحساسية المحلية في النظرة إلى الأشياء. أعني فكرة التواصل في حدود الأمكنة المدينية التي قد تبدو ضيقة لكنها توسّع هامشها وتصنع معناها وحتى تاريخها شيئاً فشيئاً وعبر التراكم المستمر للتجارب. يحتاج الشعر إذاً إلى مكان، ومكانه حين نحكي عن التواصل والتلقي ليس المجلة ولا الصحيفة ولا التلفزيون ولا المواقع الإلكترونية ولا المهرجانات ولا حتى الكتاب. هذه كلها مجالات يتحرك ضمنها الشعر بطبيعة الحال، لكن المكان الحقيقي المثمر هو ذاك الذي يتم فيه التفاعل الإنساني المباشر بين الشاعر والجمهور الذي هو في هذه الحال ليس جمهوراً كلاسيكياً، إنه جمهور صغير بطبيعته، وهو كذلك تفاعل بين شعراء المدينة نفسها، أبناء التجربة الحياتية نفسها، على حدّ سواء. لا أعتقد أن ظاهرة نوادي قراءة الشعر التي ظهرت أخيراً في بيروت، هي ظاهرة اعتباطية، بقدر تعبيرها عن حاجة فعلية، حاجة الشعر الفعلية، لمثل هذا الفضاء المفقود. لا أقول إنها مجالات نموذجية لكنها على الأقل تسهم في أن تكون متنفساً ملحاً للشعر، في زمن يبدو فيه الشعر محاصراً، لجهة حضوره، في مجالات ومسارات جاهزة رتيبة. اليوم نأتي إلى الشعر بوهم أقل وفرح أكبر. لا أحد بات يطلب من الشعر أن يحقق له حضوراً عاماً أو شهرة ما، وبدأ البحث الشعري نفسه يتخذ حيزاً أكبر من الاهتمام، وهذا بحد ذاته يمنح تجربة قصيدة النثر في منطقتنا حيوية جديدة. لا يخجلنا ولا يحط من قدر شعرنا أن نسمعه إلى الآخرين حتى لو ذهبنا به إلى طاولات المقاهي والحانات والمطاعم، لأننا قد نعثر على هذه الطاولات، على ضآلتها وقلتها، على مملكة الشعر الحقيقية.